المحاضرة الأولى: ماهية علم النفس

تتمثل الأهداف الخاصة لهذه المحاضرة فيما يلي:

- تعريف الطالب بمفهوم علم النفس وتحديد موضوعه
- إبراز أهمية علم النفس من خلال الأهداف التي يسعى إلى الوصول إليها
- تمكين الطالب من الاطلاع على مختلف فروع وميادين علم النفس.

أولا: نشأة علم النفس

علم النفس أحد العلوم الجديدة نسبيا، والذي تطور تطورا كبيرا خلال القرن العشرين، ولازال إلى حد الآن يتطور في محاولة لفهم واحدة من أعقد الظواهر، ألا وهي ظاهرة السلوك الإنساني.

علم النفس بمظهره الحديث لم يظهر فجأة فقد بذل الكثير من الفلاسفة والعلماء جهودا مضنية حتى وصلوا به إلى وضعه الحالي. فكان في العصور القديمة يندرج ضمن العلوم الفلسفية، بحيث ظهر خلال المحاولات الكثيرة للتفسيرات الفلسفية لمفاهيم الروح والنفس البشرية، والتي كانت تهدف إلى فهم الأسباب العديدة التي تقع وراء التصرفات المختلفة للكائنات الحية، وبشكلٍ عامٍ فإن علم النفس قد مر بالكثير من الحقب التاريخية والزمنية؛ كالعصور الإسلامية، وعصر النهضة الأوروبية نهايةً بالعصر الحديث، ومنها إلى استقلاله عن الفلسفة والتي عَملت على صقل العلوم النفسية والفلسفية لتظهر بمظهرها العلمي الحديث.

ومن أهم هذه الفترات ما يأتي:

أ- **علم النفس في العصور القديمة:** ارتبط علم النفس منذ بداية ظهوره بالفلسفة، فتناول الفلاسفة النفس الإنسانية بطريقة ميتافيزيقية أو استبطانية غيبية، حيث كان هناك خلط كبير بين مفاهيم الفكر، والوعي، والروح، والعقل، ووضعها بشكل متقابل مع الجسم والبدن المادي. ومن هؤلاء الفلاسفة ما يأتي:

سقراط: تطرق سقراط إلى حقيقة الذات الإنسانية دون الحديث عن العالم الخارجي، وعلى الفرد أن يتأمل ذاته ليستطيع إدراك حقيقتها، حيث آمن بمبدأ الاستقراء العقلي والقياس الاستدلالي في دراسته للنفس الإنسانية وتصوراتها الأخلاقية، وبشكل عام فقد كانت الذات والنفس هي المصدر الرئيسي والحقيقي للمعرفة عند سقراط.

أفلاطون: يؤمن أفلاطون بالروح والتي اعتبرها من أصل سماوي، أما الجسد فقد اعتبره من أصل مادي، وبالتالي فإن الروح هي التي تعمل على التحكم بالجسد وتسيّره، كما كان يرى أنه لا يمكن تحصيل المعرفة المطلقة إلا عن طريق تحرير النفس من أسرها الجسدي وسموها إلى عالم المثاليّات.

أرسطو: كان يرى أن النفس والعقل أو ما أُطلق عليه الروح جزءٌ غير منفصلٍ عن الجسم المادي، أي إنه نفى إمكانية الفصل بينهما، وأضاف أيضاً أن هذه النفس هي المصدر الأسمى للفضائل الإنسانية.

ب- علم النفس في عصر الفلسفة الإسلامية: قدّم علماء العرب إسهامات جليلة في مجال علم النفس، بحيث كان لآراءهم ودراساتهم الأثر الكبير في الدراسات والحقائق التي قدّمها العلماء الغربيون في عصر النهضة الأوروبية، ومن أبرز هؤلاء العلماء والفلاسفة ما يأتي:

ابن سينا: اهتم ابن سينا بمراحل الإدراك العقلي ومراتبه وآلية انتقال الصور والخبرات الخارجية إلى عقل الفرد وذهنه، كما تطرق في دراساته إلى موضوعات الاستجابة السلوكية الانفعالية للإنسان، مثل: الضحك، والبكاء، وغيرها. وأشار أيضا إلى العلاقة الوطيدة التي تربط بين الأمراض الجسمية والحالة النفسية. وقد قسم النفس الإنسانية إلى ثلاثة أقسام مختلفة وهي نباتية وإنسانية وحيوانية.

وقال أن الله عز وجل ميز الإنسان بالعقل، ولهذا كل فرد منا من الأفراد يتفاوت، من حيث التفكير العقلي والفهم وكذلك درجة الإيمان، وهذا بسبب وجود العقل الذي هو مسيار الاختيار داخل النفس الإنسانية.

الفارابي: لقد قام الفارابي بتقديم تفسير للروح الإنسانية حين قال إن الإنسان يتكون من شيئين منفصلين وهما الروح والبدن، وقال عن الروح أنها الشيء المعنوي الذي لا يمكن لمسه، أما عن الجسد فهو الجسم المادي القائم والموجود أمامنا، وقد قال بأن الروح تمثل الأعمال الإنسانية التي قد يقوم بها الإنسان والتي قد يقوم بها الجسد لأنه هو الشيء المادي القابل للتحقيق والتنفيذ. وفي النهاية أشار إلى أن الجسد أو البدن هو الذي قابل للفناء أما الروح فهي دائمة لا تفنى.

الغزالي: اهتم الغزالي بالكثير من موضوعات علم النفس كالانفعالات النفسية والسلوكية، مثل الغضب والخوف وغيرها من الانفعالات، ومدى تأثيرها على سلوك الفرد، كما ذكر علاقة الحالة العاطفية أو الوجدانية من حب وكره بالسلوك، بالإضافة إلى دراسة الدوافع بأنواعها المكتسبة والأولية والثانوية.

ج- مرحلة الفلسفة الحديثة: ظهر علم النفس في الفلسفة الحديثة خلال عصور النهضة الأوروبية، والذي تميز بالكثير من التغيرات والتطورات التي وصلت إلى النظرة الفلسفية تجاه الروح والعقل والسلوك الإنساني بشكل عام. ومن أهم الفلاسفة الذين برزت نظرياتهم في هذه الفترة الزمنية ما يأتي:

جون لوك: كان يرى جون لوك أن الإنسان يولد وهو عبارة عن صفحة بيضاء، تُلوّنها جميع أنواع الخبرات الحسية باكتساب المعارف الذهنية عن طريق الخوض في الواقع التجريبي والبيئي الخارجي.

ديكارت: حيث قام ديكارت بالعمل على دراسة الشعور كونه من أهم وأبرز خصائص العقل البشري، فقام بذلك بحل الخلاف الحاصل بين العلاقة بين الجسم المادي والعقل غير الملموس.

د- استقلال علم النفس عن الفلسفة: يُجمع علماء علم النفس ومؤرّخوه على أن استقلال هذا العلم عن العلوم الفلسفية والنشأة الأساسية له كانت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد العالم الألماني **فونت**، حيث اعتبر أنه هو مؤسس علم النفس، والذي نهض بعلم النفس التجريبي حيث عمل بشكل رئيسي على إنشاء أول مختبر نفسي للدراسات السيكولوجية النفسية سنة 1879م بجامعة ليبزك بألمانيا، ويسبقه اختراع أول جهاز سيكولوجي تجريبي لخدمة البحوث النفسية سنة 1861م.

استخدم فونت في هذا المختبر المنهج التجريبي المستخدم في الطبيعة من أجل دراسة الظواهر النفسية، فكان هذا المختبر مزودا بأجهزة وأدوات لإجراء التجارب على الحواس وعمليات التذكر والتعلم والتفكير والانتباه، وقياس التغيرات الفيزيولوجية أثناء الانفعال. هنا تم دراسة الشعور والوعي وما يتبعه من العمليات العليا كالإدراك والتفكير وغيرهما. وكانت الطريقة في البحث: الملاحظة الداخلية، التأمل الذاتي وتسمى الاستبطان التحليلي، حيث لاقت هذه الطريقة بانتقادات واسعة بعدم موضوعيتها، ثم تم الاستغناء عنها فيما بعد.

ثم جاء **فرويد** وأثبت وجود حياة لا شعورية للفرد إلى جانب حياته الشعورية، فحياة الفرد اللاشعورية فيها دوافع ومخاوف وتفكير وتذكر وإدراك، وكل هذه تجري على نحو لا شعوري يبدو على سلوكه القسري، وغالبا ما تكون سببا للاضطرابات النفسية أو العقلية.

بعد هذه الفترة حاول علماء النفس أن يكونوا أكثر موضوعية في دراسة الحياة النفسية، فتركزت الأبحاث على ما يمكن ملاحظته وقياسه بدقة ألا وهو السلوك، فأصبح علم النفس هو الدراسة العلمية للسلوك.

وقد لخص العالم **ودورث** (Woodworth) تاريخ علم النفس بالعبارة المشهورة: "علم النفس بعد ظهوره زهقت روحه، ثم طار عقله، ثم زال شعوره، ولم يبق منه إلا المظهر الخارجي وهو السلوك".

ثانيا: مفهوم علم النفس

1- معنى علم النفس لغة:

تتكون كلمة علم النفس Psychologie في اللغة الإنجليزية من مقطعين لهما أصل يوناني هما: Psyché وتشير إلى الحياة أو الروح أو النفس البشرية أو العقل، أما المقطع الثاني Logos فهو يفيد معنى العلم، أي البحث الذي له أصول منهجية علمية.

2- معنى علم النفس اصطلاحا:

لا يوجد تعريف مستقل لعلم النفس يجمع عليه الباحثون ويعود ذلك لعدة أسباب منها:

أ- كان في السابق نوعا من الفلسفة يدرس منهجية ذات طابع فلسفي.

ب- تعرض أثناء تطوره بعد انفصاله عن الفلسفة لمؤثرات العلوم الطبيعية، مما أدى إلى تعدد وجهات نظر علماء النفس، بحيث ظهرت عدة مدارس منها:

- **المدرسة البنائية:** حيث ركزت اهتمامها حول الشعور والوعي
- **المدرسة السلوكية:** اهتمت بسلوك الإنسان الظاهري الذي يمكن ملاحظته، مثل المشي والضحك والكلام، الكتابة...الخ.

- **المدرسة المعرفية:** ركزت اهتمامها على العمليات العقلية والمعرفية التي تحدث في الدماغ.
- **النظريات التحليلية:** اهتمت بتفسير السلوك والدوافع الكامنة وراءه.

ومن التعاريف التي وضعت لعلم النفس ما يلي:

- "هو العلم الذي يدرس سلوك الكائن الحي وما وراءه من عمليات عقلية دراسة علمية الهدف منها فهم السلوك الإنساني والتنبؤ به، ومن ثم ضبطه والتحكم فيه وتعديله نحو الأحسن".
- أو هو: "العلم الذي يدرس وظائف الدماغ".
- وهو أيضا: "العلم الذي يدرس العمليات العقلية".
- وهناك من عرّفه بأنه: "الدراسة العلمية للسلوك".
- وعرّف أيضا بأنه: "العلم الذي يدرس سلوك الإنسان وسلوك الحيوان وما يحمل هذا السلوك من مظاهر مثل الدوافع والانفعالات والاستدلال والتفكير والتعلم إلى غير ذلك".

ومن خلال هذه التعاريف، يتضح أن موضوع علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الكائن الحي، وخصوصا الإنسان، وذلك بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه.

وتعرّف الدراسة العلمية بأنها: "مجموعة من المعارف المتناسقة أو المترابطة التي يُعتمد في تحصيلها على المنهج العلمي دون سواه".

وتتمثل خطوات المنهج العلمي فيما يلي:

- تحديد مشكلة الدراسة أو البحث
- فرض الفروض
- تصميم التجربة وإجراؤها
- التحقق من تلك الفروض
- تحليل النتائج

ويعرّف السلوك بأنه: "نشاط يصدر عن الكائن الحي ويمكن ملاحظته، أو إن لم يمكن ملاحظته يمكن للباحث أن يستدل عليه بوسائله ومقاييسه وأجهزته الخاصة".

وهذا السلوك أو النشاط يمكن أن يكون ظاهرا كالتحدث والمشي والأكل واللعب، أو غير ظاهر كالتفكير والتذكر والإدراك. فهذه أنشطة لا يمكن ملاحظتها بصورة مباشرة لكن يمكن أن نستدل على حدوثها من خلال ملاحظة نتائجها.

كما يمكن أن يكون هذا النشاط إراديا كالأكل والصلاة، أو غير إرادي كالانتباه وسماع صوت الرعد مثلا. أيضا، يمكن أن يكون السلوك شعوريا كالقراءة، أو غير شعوري كالأحلام وفلتات اللسان.

ويتكون السلوك من شيئين:

أ- **مثير ومنبه:** وهو أي عامل خارجي أوداخلي يثير نشاط الكائن الحي أو يثير عضوا من أعضائه.

ومثال المنبه الخارجي: كأن يكون حسي كالتذوق، أو اجتماعي كحضور فرح أو الالتقاء بصديق.

أما المنبه الداخلي: يمكن أن يكون فيزيولوجي كارتفاع السكر في الدم، أو تقلصات المعدة أثناء الجوع، ويمكن أن يكون نفسي كالحب والكره.

ب- الاستجابة: هي كل نشاط يثيره منبه أو مثير. ويمكن أن تكون الاستجابة حركية كالهروب أو تحريك الساق، أو لفظية كالرد عن سؤال، أو فيزيولوجية كإفراز غدة من الغدد، أو معرفية كالتفكير والانتباه، أو انفعالية كالفرح والحزن، أو يمكن أن تكون الاستجابة الكف عن الحركة كالتوقف عن الحركة عند سماع خبر مفاجئ.

3- أهداف علم النفس: يسعى هذا العلم لتحقيق الأهداف التالية:

- دراسة وفهم السلوك الإنساني ووضع تفسيرات علمية له.
- وضع خريطة تنبؤية لما سيصبح عليه السلوك الخاص بالإنسان.
- الضبط والسيطرة على السلوك والتحكم فيه.

ثالثا: ميادين (فروع) علم النفس

تنقسم ميادين علم النفس إلى: ميادين نظرية، وأخرى تطبيقية، وهما كالآتي:

1- الميادين النظرية لعلم النفس:

وهي الفروع التي تختص بالكشف عن المبادئ والقوانين التي تحكم السلوك الإنساني، ومن هذه الفروع ما يلي:

أ- علم النفس العام: يهتم بدراسة الأسس والمبادئ والأصول العامة لعلم النفس، والتي يراها علماء النفس ذات أهمية كبيرة في هذا العلم، فهي تمثل المنطلق الأساسي لكافة فروع علم النفس الأخرى، حيث يهدف إلى الوصول إلى القوانين العامة التي تساعد في تفسير سلوك الإنسان.

ب- علم النفس النمو: يهتم بدراسة نمو الطفل والمراهق والمراحل المختلفة التي تمر بها عملية النمو، والعوامل التي تؤثر فيها، وذلك من أجل فهم شخصية الإنسان وسلوكه ودوافعه، واتجاهاته في مراحل حياته المختلفة، بهدف توجيهه وتربيته.

ج- علم النفس الفيزيولوجي: يهتم بدراسة الجهاز العصبي ووظائفه وتأثيره على السلوك والشخصية، كما يهتم بدراسة الغدد الصماء، والعوامل الفيزيولوجية في الانفعالات والمصاحبة للدوافع ولمختلف النشاطات السلوكية، فهو يهتم بإبراز حقيقة وجود علاقة بين الجسم والنفس.

د- علم النفس الاجتماعي: يهتم بدراسة علاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعات ببعضها البعض، والتفاعلات الاجتماعية، والتنشئة الاجتماعية للفرد، وكيفية تأثيره بالنظام الاجتماعي والثقافة التي ينشأ فيها، وكيف يؤثر ذلك في تكوين اتجاهاته واعتقاداته وميوله.

و- علم النفس الشواذ: يهتم هذا الفرع من علم النفس بفئة معينة من المجتمع، وهم الذين يتمتعون بسلوك خاص بهم وهو سلوك غير سوي أو غير مألوف –شاذ–، بحيث يهدف هذا الفرع إلى دراسة الأسس السيكولوجية العامة لهذه الفئة، ومحاولة معرفة أسباب الشذوذ والانحراف، والسعي إلى إيجاد حل لها. وينقسم علم النفس الشواذ إلى قسمين: علم نفس الموهوبين: ويدرس النوابغ، والأذكياء وهم الذين يعلو ذكائهم في مستواه علوا كبيرا عن العاديين، وعلم النفس المرضي: ويدرس أصل الأمراض النفسية والعقلية.

2- الميادين التطبيقية لعلم النفس:

وهي تهدف إلى تحقيق أغراض علمية وحل مشكلات علمية وعملية، وتضع حلولا عملية للمشكلات التي تختص بدراستها الفروع النظرية. ومن هذه المجالات ما يلي:

أ- علم النفس التربوي: يهتم هذا الفرع باستخدام مبادئ علم النفس في التعليم والتربية، بحيث يحتاج إلى معرفة علم النفس الطفل ومراحل نموه الفكري والعاطفي، فبهاته المعطيات يمكنه التطلع على تقنيات ومناهج التعليم والنظر في محتويات البرامج المستعملة. وأيضا معالجة المشكلات التي تواجه المربين والتلاميذ أثناء عملية التعليم، بهدف تحسنها ورفع كفاءة التلاميذ في التعلم.

ب- علم النفس الاكلينيكي: يطلق عليه أيضا اسم علم النفس العيادي أو السريري، وهو العلم الذي يتناول تشخيص الأمراض النفسية والعقلية واضطرابات السلوك وعلاجها، وهو في سبيل ذلك يستعين بوسائل وأدوات علمية، ويتم عادة هذا التشخيص وذلك التوجيه والعلاج في عيادة أو مكان مشابه مخصص لهذا الغرض.

ج- علم النفس الإرشادي: يهتم بمساعدة الأفراد الأسوياء في عملية مواجهة وحل مشكلاتهم بأنفسهم في جميع مجالات الحياة، كما يعمل على تشجيع الإنجاز في مواقع العمل والتعليم.